في بادية الشام

(٣)

(المزيم) بعد ان خبّت بنا المطايا مرحلتين قصيرتين من الازرق[1] بلغنا ضحى الثامن من ذي الحجة منازل المزيم وهو مشتق من الهزم بالفتح والسكون وهو ما اطمأنّ من الارض والمزيم بمعنى المفعول اي المنزل المطمئنّ من الارض وهو في الواقع كذلك مستوي الرقعة ومبارك البقعة والمراعي الطيبة حولهُ قاصرة[2] ناضرة وفيهِ من القُلُب[3] المنقورة في الصخور الرملية ما يربي على العشرين والصخور متكتّلة وهي المدعوة بمصطلح الجيولوجيين بالكونغلومريت فوقها طبقة رملية ثخانة مترين الارض . فالصخور كالارض التحتية في عرف الزراعيين

وماء هذه القُلُب شروب غير بعيد الغور وانما يتراوح ما بين طول القامة والقناة ويمتزج بابوال الابل الواردة فتعزف نفس الحضري عن شربهِ فيشربهُ مضطرًّا . وقد ورد ذكر المزيم في معجم الحموي بانهُ موضع في قول عدي بن الرقاع حيث قال :

اخبر النفس انما الناسُ كالعيـ ـدانِ ما بين ثابتٍ وهشيمِ
من ديار غشيتُها دارساتٍ بين قارات ضاحكٍ فالمزيم

وبين المزيم ودمشق ما ينيف على ٢٠٠ كيلو متر وفيهِ لبثنا يومين والثالث الاضحى ويعلمون مساء عرفة يوم العيد باطلاق الرصاص من كل صوب . وصباح عيد الاضحى يضحون كثيراً من الابل وتراهم يدعو بعضهم بعضاً

ومن عادة الفقراء في هذا اليوم ان تأتي امرأة احدهم بقدرها للبعير المضحى وتقطع منهُ قدر الحاجة وتطبخهُ امام بيت رب الضحية ولا تحسن قدرها الاَّ نضيجاً . وقد راجت في هذا اليوم سوقنا لاضطرارنا لاجابة دعوة كل من ضحّى تكتما احتياطاً من التخافين نأكل من كل ضحية لقمة واذا اكرمنا المضحي فبتقديم السنام المقطّع والسنام في نظر البدوي اسنى

---

(١) ذكرت في المقالة السابقة ان ياقوت لم يعين مقر الازرق اذ بينهُ وبين تيماء مسافة ٢٠٠ كيلو متر وكنت تركت في المقالة المخطوطة فراغاً لاحرر جهدي المقدار بالقياس المائي ثم نسيت وقدّمت للطبع قبل تحرير المقالة فاستدركت ما فرّطت بالامس واسافة هي تقريباً ٦٠٠ كيلو متر

(٢) الغرعى القاصر لغةً ما قرب من المورد (٣) قال الازهري : القليب عند العرب البئر العادية القديمة مطوية او غير مطوية والجمع قلب مثل بريد وبرد . ويلفظها البدو اليوم الجليب

قيمةً من لحم الخروف الطري لدى الحضريين وكان هؤلاء المضحون يطلبون منها قبل غسل الايدي من الطعام ان نقرأ لارواح اموانهم الفاتحة .

وما راقني في الهزيم إلاَّ غناء المانحين (المستقين بالدلو) الرخيوهم يسقون ابلهم الخوامس[1] الهيم ويدعون هذا الغناء « الحدو » وهو الحداء يحثون به النوق على الشرب كما تحث به على السير وقد ورثوا علمه العادة ولا ريب عن اجدادهم الذين كانوا يغنون لابلهم حين المتح بانواع الرجز وهي الابحر السهلة التي تناسب الحركة كالسير وتقل الاثقال والرقص والمتح والصراع والقراع وذلك مما عابهُ الشعوبية على العرب . وقد اتى الجاحظ في الرد عليهم بفصل الخطاب قال في صدر الجزء الثالث من البيان والتبيين : « وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنهُ انما ولدت هناك معاناة ولا مكابدة . ولا اجالة فكر ولا استعانة . وانما هو ان يصرف وهمهُ الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب فما هو الاَّ ان يصرف وهمهُ الى جملة المذهب والى العمود الذي اليهِ يقصد فتأتيهِ المعاني ارسالاً وتنثال عليهِ الالفاظ انثيالاً » . اقول ومما يدل على ان الامام الجاحظ يفضل الحزة بقولهِ اني كنت انتقل من قليب الى قليب واسمع من الاقوال المرتجلة بين مديح وتشبيب ووصف ابل يغنون تجبتها ويبالغون بمدحها ما تملأ بهِ الدفاتر وتجف لهُ المحابر وما يهيج الطرب ويبعث الوجد ويثير في المانحين النشاط ويشوق السامعين الى المتح . فلقد وددت ان اساعدهم في المتح لاشارك الابل في الاصغاء والمانح في الحداء وقد اختص البدو قديمًا المتح بحر الرجز لسهولتهِ وتناسبهِ مع حركة القاء الدلاء في البئر ونزعها كما انهم نظموا على هذا البحر الخفيف اراجيز الحداء . وبدو اليوم ينظمون اراجيز المتح على مجزوء الرجز المذيل . ومما استظهرتهُ على قُلُب الهزيم قولهم :

يا مرحبا بالروامل شيالات المحامل
يا مرحبا بابلنا يا مبعدات منزلنا
يا مرحبا بابلنا واللي بغينا شلنا
يا بو قرون المرس كل حبتين بفرس
يا مرحبا بالابل يا مزوجات الحبل

والبيت الاخير يدل على ان مهر نساء البدو الابل . ومما يغنون بهِ عند تحميل الاثقال ونقلها قولهم :

(١) الابل الخوامس التي ترد على خمس اي كل خمسة ايام والهيم العطاش

وبه يا شيبان وانت بالي حيلك حيل البنات

وشعمت العرب الرجز لترقيص الصبيان والبنات . فقد روي ان شيخاً من الاعراب تزوج جارية من رهطه وطمع ان تلد له غلاماً فولدت جارية فهجرها وهجر مرتعها وصار يأوي الى غير بيتها فرجعت بعد حول فاذا بها ترقص بنيتها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ان لا نلد البنينا تالله ما ذلك في ايدينا

وانما نأخذ ما أعطينا

فلما سمع الشيخ الابيات مر حضراً اني عادياً بفرسه حتى وقع عليها الجباء فقبلها وقبل بنيتها وقال ظلمكما ورب الكعبة

ثم في الحادي والعشرين من ذي الحجة عزمت وصديقي المرحوم جلال الدين[1] على استئناف التشريق واللحاق بشيخ الحويطات عودة ابي تائه قبل ان يبعد عنا كثيراً بتحوله عن مراحه ومخيمه لدى قليب المقيلة بجانب قرية كاف من قريات المخ والمسافة بيننا نحو ثلاثين كيلو متراً . وقد خرج الشيخ خنيفس خارج الحي لوداعنا واوصى بنا قريباً له متوجهاً على راحلته وجهنا واكد عليه التأكيد كله ان يريحنا بتناوب الامتطاء في دربنا الذي لقينا منه عمر الحق نصباً . فقد سرنا مقدار ساعة ثم شرعنا في اجتياز سلسلة مستطيلة من الهضاب والآكام وهي مضبعة : مأوى للضباع . مخيفة . وقد تناوبنا مع رفيقنا السرحاني الركوب واضطررت احياناً للمشي محتذياً بمداس شامي (كندرة) احتذاه صديقي الذي قرّح المداس قدميه لانه لم يصنع للهضاب والشعاب . ولما اتعبني التعاله نزعته وسرت حافياً فارحت قدمي قليلاً الا انه سرعان ما يتعب الخضري الترف في وعورة الرمال ووعورة الجبال فكنت اقول في نفسي ليتني اعتدت قبل هذا الجلاء الحفاء وعملت بقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب : « احفوا وانتعلوا فانكم لا تدرون متى تكون الجفلة » فلهذا اضطرتني تلك الجفلة فاحتذيت كالسروجي الزجي واحتذيت وصاحبي الشجا واستبطنا الجوى . وطوينا الاحشاء على الطوى ثم بعد التيا والتي بلغنا عصارى النهار قرية كاف كبرى القريات المخية واتخذنا الراحلة في دار شيخها طلباً لراحة وكرعنا لشدة الغلة الماء كرعاً وقدم لنا طبق فيه من كل صنف من التمر الكفاية زوجان فاكلنا من

---

[1] هو البدري بالبا والخاء المعجمتين نجل العلامة الشيخ سليم البدري الذي طبع الاب لويس شيخو على نفقته الخمة كتاب الالفاظ الكتابية

اعطابه تمرات القيم الاصلاب وتنسي الاتعاب . ثم اعدنا كرة السير الى السفيلة فبلغنا مخيم الحويطات والشمس هابطة لتتوارى بالحجاب ودخلنا فسطاط الشيخ عودة المشهود . وبعد ان سلمنا عليه واخذنا مقاعدنا بين البدو ألفينا فيهم نفراً من الشام اقبلوا وسلموا علينا واخذوا في محادثتنا ولما سألونا عن الاسم رأينا من الحزم الكتم ومن الصواب ان نشك ونرتاب فقلت لهم اسمي عبد الله نديم وهو اسم كنت اخترتهُ في الجولان تفادلاً بالنجاة لما كان لهذا الاسم الميمون على صاحبهِ المعروف من الفضل والبركة . وقال صاحبي اسمي سالم . قالوا : والنسب ؟ قلنا من العرب . فقال احدهم عن اسمي جلال انهُ لشقرته من بيت العظم واني من بيت الجزائري رحباً بالغريب . فسكتنا وكان السكوت اقرار . ثم قلنا لهم انَّا لم نلذ بالفرار الاَّ حذراً من التجند فمن الواجب علينا لما بيننا من وحدة الوطن ان تروصوا بنا الشيخ عودة الذي لم نكن لنعرفهُ من قبل وذلك كيما يسهل لنا الوصول الى الجوف فوعدونا ووفوا بعد تناول العشاء اذ عرفوا الشيخ بنا فرفقاً حسناً دعاهُ ليقول وكأنهُ قد علم من مواطئنا الجرنا وبجرنا: لا بأس لا بأس عليكما وليخرج كربكما . ولياْمن عندي مربكما . فانا ايضاً من ذوي اللغوية . واخوان الجمعية فرحباً بكم اذ ندبتم اهلاً . فاصبتم سهلاً

(قُرَيَّات الملح) جمع قُرَيَّة تصغير قرية واضيفت للملح لان بها في كاف ملاَّحات طبيعية يعود ريعها لامير الجوف نواف الشعلان لا للديون العمومية وهي عبارة عن عدة واحات من النخيل في كل واحة عدة بيوت قروية مشيدة باللبن واهم هذه الواحات قريات ثلاث كبراهن قرية كاف فندرة فأثرة . وفي كاف ما يزيد على عشرين الف نخلة باسقة جعل الله منها رزق اهل القريات ومن الملح ينقلونهُ الى حوران ويجلبون والجولان على متون الزوامل وقد علمتُ ان منهم من يشتري بالثمانيه بضائع دمشقية مما يصلح للبادية كي يبيعها للعرب فيربح من تجارة لن تبور ربحاً جماً . واما البدو فهم كما ذكرتُ يحملون جمالهم ملحاً يدفعون ضريبة كل حمل ريالاً مجيدياً ليبيعوا في ارياف الشام الملح بالخنطة وفي ذلك معاش لهم وتخفيف لما يقاسون

(الحويطات) قبيلة قوية انتشرت مساكنها في الشام من محطة العلاء الى معان والعقبة وغزة وتشعبت فصائل وبطوناً كالتواهة والجوازي وبني عطية والبدول والديور وعمران والبطحة والطرابين وغيرهم ولقد قدرهم الفاضل البتنوني بسبعين الف بيت وذكر بينهم الجازاي وهم الجوازي الذين يقال لهم ايضاً بنو جازي وشيخهم عبطان بن جازي ابن عم عودة شيخ التواهة . ومنازل كل الجوازي والتواهة معان ولهم هناك بطش وصولة تخشاهما

الدولة التركية . وقد افترق منذ بضع سنين النواشمة عن بني عمهم الجوازي لفساد التي بين الشيخين فهجرت النواشمة منازل العمومة واخوولة إباء وحرصاً على ان لا تظل بينهم وبني الاعمام الدماء هدراً وحالفوا الدولة وصاروا يشرقون معهم ويغربون ثم توثقت عرى الاخاء والمودة بين نواف وعودة كثيراً فزادت بذلك الدولة قوة على قوة في بادية الشام

وحينما كنت نزيل النواشمة غزا الشيخ عودة ابن عمهِ عبطان مرتين فقتل في الاولى رئيس الخلة عناد بن عودة رحمهُ الله فقد كان شاباً حفياً بنا — في السن الرقيق المحبوب وفي حومة الوغى ابن كريهةٍ ومردي خروب . وترأس الخلة الثانية الشيخ نفسهُ طلباً بثأر ولدهِ وخليفتهِ من بعدهِ . ورافقهُ كوكبة من الدولة عليهم فارس الشعلان وخرج الفريقان ما بين فارس وراعي مطية مكفّرين في السلاح . ومما يجدر بالحضري ان يضربهُ هنا مثلاً بجلد البدو وقوة احتمالهم ان الشيخ عودة حينما بلغهُ نعي حشاشتهِ لم يتنهد ولم يبكِ ولا تندت بالدموع عيناهُ على ان الزنين في عرف الحضري استراحة المنكوب وفيضة الملآن

ان الشيخ عودة رجل عرفتهُ البادية بكرمهِ ونجدتهِ وفحولتهِ العربية كما ان البدو يعدونهُ احد فحول الحرب في بادية الشام وقرومها . ولهُ ابن عم يقال لهُ محمد دحيلان يغزو معهُ ويشاطرهُ هذه المناقب . وكثيراً ما كنت اذكر لعودة وقومهِ فظائع القتال وما ينجم عن الغزو المستمر من البلاء وسفك الدماء وانهُ محرّم عقلاً ونقلاً فكانوا يعتذرون بان الغزو ضرر لا مفر منهُ ولم فيهِ معاش فلا يستغنون عنهُ . وان في الضرب بالنار اخذاً بالثار وغسلاً للعار وان لا طاقة لم بجسمهِ إذ نفسهُ اكبر من اثمهِ . والغريب انهم يأخذون للغزو معهم الصبيان ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان والثبات في معترك الفرسان . واما انا فالي بالغزو أرب ولا لي بهِ يدان . بل كنت حينما اجتاب القفار اطلب السلامة من الحفيظ الستار وقد طالما قلت في نفسي :

اشتهي ان لا ارى الغزوَ ولا الغزو يراني

(التفاسن البدوي) ثروة البدوي لهذا الغزو سريعة الزوال ولا تستقر على حال تحاكي ثروة المقامرين في المضمار (البورصة) اذ بينا ترى البدوي يضحي وهو ذو ثراء في ربعهِ اذا بك تراهُ يمسي وهو لفقرهِ المدقع كأن قد ضرب على بصرهِ . وسمعهِ ولكن البدو من مناقبهم التضامن في البدوي والتظاهر على البر والتقوى فتراهم يتسابقون الى مد يد المعونة لمعوز اذا ذل فهذا يجود لهُ ببعير وهذاك بكساء وحصير وذاك بعنزة او عنزتين وذلك بقربة اوعلبة والآخر يرضخ لهُ بدريهمات يستمرن مهتوك ستره ويرتبن مصدوع امره

مكثنا بعد غزوة الشيخ بضعة ايام في مضربه الرفيع العماد الكثير الرماد وغيَّرنا مراحنا اتجاهاً وارتياداً حتى هبطنا ماء يقال له الخبضر وكأنهُ تصغير مخضر اي مكان اخضر وماؤهُ شروب وكنا كلما امعنا في الشرق امعن الجو بالاعتدال ورقَّ الهواء بالاعتلال مما جعلنا لا نأسى كثيراً على ما كتبهُ الله علينا من الجلاء وان كان قد قرنهُ بالقتل فقال : « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوهُ الاَّ قليل منهم » فقد كنا صباح مساء نمتع النواظر ببهيج المناظر المتعددة المتجددة ونستنشق اتقى الهواء الفيَّاح بأريج الشيح والقيصوم وناهيك بشهرة عطور جزيرتنا العربية التي غدت مضرب امثال الامم الغربية مما اولع العرب بايثار باديتهم الطيبة على بلادنا الخضرية . وهم لتبدل المناظر امامهم كل حين عديمو الحاجة للمسارح والصور المتحركة . فكل بيت من الشعر في نظرهم بيت من الشعر فلا غرو اذا ما اختاروا هذا البيت الخفيف المحبَّب على بيتنا المكيف المقبَّب . ولا اقول قولي هذا تعصباً لهؤلاء الاعراب الذين هم مادة قومي العرب فقد اقر لهم بذلك قبلي المستشرقون الرحالون واي شهادة ارجح من شهادة نابغة مستشرقات الانكليز الآنسة جرترود بل Gertrude Lowthian Bell في رحلتها الموسومة بالغامر والعامر The desert and the sown. اذ تقول صفحة ٣٨ :

« وخيمة العربي مفتوحة لمهب الريح دائماً واذا ما اختلف المهب فالنساء ينقلن رواق البيت الى جهة أخرى فترى في لحظة ان بيتك قد تبدلت مرائيهِ وواجه انسب المناظر الرائعة فهو على صغرهِ وخفتهِ يرى راسخاً بقوة لا تؤثر فيها العواصف الاَّ قليلاً . وان السام الغليظة لنسيجهِ المتخذ من شعر الماعز لتنسج ثم تضايق بازطوبة فالبيت الى ان يكف بالمطر بحاجةٍ الى دية مسوقة يعاصفة نكباء » . ولكني لم اكن مغرماً بهذه البادية الاَّ مرغماً وانما المعوَّل على الحبيب الاول . فقد كنت حنيني الى أوطاني وأنيني لمفارقة خلاني كما قال الشاعر وفي قولهِ دليل ايضاً على غناء المتحنين وشقاء النازحين :

وما حاديات ضمن يوماً وليلةً ... على الماء يخشين العصيَّ حواني
لوالب لا يصدرن عنهُ بوجهةٍ ... ولاهنَّ من برد الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونهُ ... فهنَّ لأصوات السقاة رواني
بارجعَ مني جهد شوقٍ وخلةٍ ... اليها ولكن العدوَّ عداني

« تبحث بقية »

عز الدين آل ظافر الدين